أَضَعُ في الأدراج!

نيروز مالك

ما قاله عبد الرحمن منيف في كتابه **عروة الزمان الباهي** يلخّص وضعَ الكاتب العربيّ بصورة مكثّفة وواضحة. فهو يقول: «كان أغلبُ المثقفين يَكْتسب دورَه وأهميّته بمدى اقترابه من السلطة. أمّا إذا كان للمثقف دورٌ متميّزٌ ومختلف، ومعارض أيضًا، فإنّ أقلّ ردود السلطة شأنًا ـ على اختلافها معه ـ أن تطوّقه بالصمت، أن تَضَعه في زاوية مظلمة، بحيث لا يسمعه ولا يراهُ أحد. وحين يلجأ هذا المثقفُ المختلف أو المعارض إلى التحدّي، فالسجون واسعة.»

أنا شخصيّاً لم أجد في ما قاله منيف مبالغة. فأنا لا أسأل نفسي عندما أكتب إنْ كان «يحقّ» لي كتابةُ هذا الموضوع أم لا؟ وهل سيوافق الرقيبُ على نشرِ ما كتبتُه من أعمال؟ وهل سأُحاسَب من قِبل السلطة لأنّي تماديْتُ في انتقادي لأوضاعها السياسيّة أو للفساد الذي يَنْخر مؤسّساتِها؟ ذلك لأنّني أشبّه الكاتبَ باللغّام: إذا أراد السيرَ في حقل الألغام من دون خريطة، فعليه أن يَعْتمد في سيره على حَدْسه فقط! أما الكاتبُ الذي لا يرضى السيرَ من دون خريطة، فعليه أن يَدْفع ثمنًا باهظًا من كرامته للسلطةِ أو الجهةِ التي ستزوّده بأسرار الخريطة. عندها سيَقْطف الكاتبُ حاملُ الخريطة ثمارًا مشتهاةً. فإنْ كنتَ «كاتبًا» صاحبَ ربع موهبة، فستصبح رئيسًا لتحرير إحدى الجرائد أو المجلات، أو مديرًا لإحدى مؤسّسات السلطة الثقافيّة، أو ربما مسؤولاً رفيعًا لديها.

وأما الكاتب الذي لا يجيد موهبةَ النفاق ولا يجيد تجميلَ وجه السلطة، فسيجد نفسَه موقوفًا وهو يتنقّل بين غرف التحقيق، في جوّ من التخويف النفسيّ والعصبيّ لساعات طويلة، يجيب فيها عن أسئلةٍ لا معنى لها. وإلى جواره، في غرف التحقيق الأخرى، يَسْمع، أو يُسمعونه، ضربًا مبرّحًا لِلصّ، أو شتائمَ في أمّ «قوّادٍ» أَهْمل توريدَ بضاعةٍ ممتازةٍ لبعض المسؤولين.

عندما يَنْتهي التحقيق يجد الكاتبُ نفسَه في جوٍّ أشدَّ تخويفًا من الجوّ السابق، وستُجْبره السلطةُ على الإعلان عن نفسه لدى أجهزتها الأمنيّة في ساعة محدّدة من كلّ يوم. فإذا لم يتّعظ، واستمرّ في الحديث عن الحقوق المنتهكة في بلده، فإنّه يُرْمى في منفردةٍ عرضُها مترٌ وطولُها متران. بعد ذلك يجد أبوابَ النشر الرسميّة مغلقةً أمامه تمامًا. وعندما يحاول نَشْرَ نتاجه لدى دُور نشر أهليّة يجد مخطوطاتِه مختومةً بتقرير يُشْبه التقرير التالي الذي وُسِمَتْ به إحدى مخطوطاتي، **سبع قصص وحكاية**، تحت رقم ٧٢١ بتاريخ ١٩٩٤/١١/٢٢:

«الرأي الفنيّ: يتناول المخطوطُ في قصصه موضوعات آنيّةً معاصرةً بأسلوب تاريخيّ. لكنّ إسقاطاتها كلّها راهنة وحديثة، من خلال إشارات أبرزتْها الصحافةُ والتلفزيونُ. وهي في مجملها تتحدّث عن خراب البلاد، وسوءِ أحوال العباد، والظلم والظلاّمين، والشكاوى من الحال السياسيّة التي تَسْتعبد الناسَ جميعًا. الرأي الفكريّ: يُغْلِقُ الكاتبُ كلَّ منافذ الأمَل. المستوى اللغويّ: جيد. الرأي: عدم الموافقة على الطبع.» وهنا يضطرّ الكاتب إلى أن يضع معظمَ ما يَكْتبه في أدراجه.. إلى يومٍ يجد سلطةً في بلده تَفْتح له منافذَ الأمل في النشر، وفي الحياة.

حلب

نيروز مالك

قاصّ وروائيّ سوريّ من أعماله **الصدفة والبحر**، **وحرب صغيرة**، **وكوب من الشاي البارد**، **وكتاب الوطن**.